كلمة بمناسبة انقضاء خمسين سنة على وفاة
العلامة محمد كرد علي
مؤسس المجمع العلمي بدمشق

أ. د. عبد الكريم خليفة

الأستاذ الجليل الدكتور شاكر الفحام رئيس مجمع اللغة العربية

أيها العلماء الأفاضل

السيدات والسادة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد؛

إنه لشرف كبير أن أدعى لإلقاء كلمة في هذا الحفل التذكاري، لمؤسس المجمع، مجمع اللغة العربية في دمشق (المجمع العلمي العربي)، العلامة محمد كرد علي، بمناسبة انقضاء خمسين سنة على وفاته. فنستذكر سيرة علم من أعلام الأمة الذين أنجبتهم دمشق. فدمشق على مر العصور، بوتقة علم وحضارة، تنصهر فيها مختلف الأجناس والأعراق، فتعيد تكوينها الثقافي والفكري، عناصر أصيلة في خدمة العربية الخالدة لغة العروبة والإسلام. وقد بقيت دمشق الشام، على مر القرون والعصور، مركز إشعاع ثقافي وفكري وحضاري، تطبع الوافدين إليها والنازلين فيها، إلى جانب أبنائها بطابعها الشامي. ودمشق الفيحاء فخورة بهذا الدور، الذي تستوحي فيه طابع بلاد الشام التي باركها الله سبحانه وتعالى. وقد اختزلت هذه التسمية عند عامة الناس، فأصبحوا يطلقون على دمشق اسم «الشام».

وإن الأمثلة على ذلك كثيرة في تاريخنا العربي والإسلامي، فمنذ الصحابة الذين استقروا بالشام، إلى بني أمية... إلى العلماء ورجال الفكر والأدب الذين نشؤوا فيها، أو الذين اختاروها دار مقر، وبقيت دمشق بعد وفاتهم تعنى بذكراهم. وحيُّ الشيخ محيي الدين بن عربي، الإمام الصوفي الأندلسي، ومسجده المبجل القائم حتى الآن خير شاهد على ذلك. والأمثلة كثيرة وتشكل قائمة طويلة على مرّ العصور، وليس أقل مصادرها صاحب «تاريخ مدينة دمشق» للحافظ أبي القاسم علي بن الحسين بن هبة الله بن عبد الله الشافعي، المعروف بابن عساكر (٤٩٩هـ- ٥٧١هـ)، والذي عكف مجمعنا العتيد بدمشق على تحقيقه ونشره منذ عدة عقود.

وإنني لأرى موقع الرئيس محمد كرد علي في هذه اللوحة الشامية، التي تتسامى فوق الأعراق والأجناس، وفوق القطرية والقبلية. فقد حدثنا الأستاذ الرئيس – رحمه الله – عن نفسه فقال: إن أصل أسرته من السليمانية، تنتسب إلى الأكراد الأيوبيين، وجاء جدّه إلى دمشق وسكن فيها. وقد ولد محمد كرد علي في دمشق أواخر صفر سنة ١٢٩٣هـ الموافق سنة ١٨٧٦م، من أم شركسية.

ليس من وكد هذه الكلمة العجلى أن تؤرخ لحياة الأستاذ الرئيس محمد كرد علي، وسأكتفي ببعض الإيماءات في حياته الثقافية والمجمعية.

فقد تعلم، رحمه الله، القراءة والكتابة ومبادئ العلوم الإسلامية، والحساب والطبيعيات. ودرس الفرنسية دراسة خاصة مدة ثلاث سنين، وبرع بالترجمة من الفرنسية إلى العربية وبالعكس، وأتقن أدب اللغة التركية، على حد تعبيره، إذ يقول: «وشرعت أنشئ فيها كما أنشئ بالفرنسية». ويواصل حديثه إذ يقول: «وقد اقتطعت، مع ذلك جانبًا من الوقت لدرس الآداب العربية والعلوم

الإسلامية، وتلقيت اللغة الفارسية حتى حذقتها ثم أنسيتها»[١].

وأخذ عن مشايخ دمشق، كل ما وسعه قراءته، من كتب اللغة والأدب والبيان والاجتماع والتاريخ والفقه والتفسير والفلسفة. ويذكر من أساتذته: الشيخ طاهر الجزائري والشيخ محمد مبارك، والشيخ سليم البخاري. ويقول: «كان العامل الأكبر في توجيه إرادتي نحو الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي، والإقدام على التأليف والنشر، وإشرابي محبة الأجداد، والتناغي بآثارهم، والحرص على تراث حضارتهم، أستاذي الأكبر طاهر الجزائري. فما زلت ألزمه، منذ اتصلت به إلى أن ذهب إلى ربه سنة ١٣٣٨هـ، حميد الأثر...».

ويحدثنا الأستاذ الرئيس عن اطلاعه الواسع على أهم ما كتبه الأدباء والمفكرون الفرنسيون، مثل: فولتير وروسو وديكارت وغيرهم... وأنه كان حريصًا على تدارس المجلات الفلسفية والاجتماعية والتاريخية والأدبية باللغة الإفرنجية[٢]. ويحدثنا عن دوره الأدبي والصحفي والسياسي حديثًا طويلاً... فقد دخل في جمعية الاتحاد والترقي قبل الانقلاب العثماني بنحو اثنتي عشرة سنة. وعندما حدث الانقلاب سنة ١٩٠٨م، رجع إلى دمشق وأصدر في ١٧ كانون الأول من العام نفسه جريدة المقتبس، يومية سياسية... وكان على حدّ قوله يرمي إلى استحصال حقوق العرب ضمن الجامعة العثمانية، ويتحدث عن هذه المدة فيقول: «وخدمت ما استطعت، وساعدتْ البيئة، ولم أجدّد في الانقلاب للاتحاد عهدًا مع كثرة إلحاحهم علي... لأن مرامي الاتحاديين تجلّت بأنها تقصد إلى تتريك العناصر، ومن أول مقاصدنا الدعوة إلى القومية العربية،

(١) انظر: خطط الشام، ج٦ ص ٣٣٣- ٣٣٤.

(٢) انظر: خطط الشام، ج٦ ص ٣٣٤.

وإنهاض العرب من كبوتهم»[٣].

وبعد سقوط الآستانة بثلاثة أشهر، عاد كرد علي إلى دمشق ليعاود إصدار المقتبس، فيقول: «ولكنّ الحاكم العسكري العام، وكان من أصدقائي، ألحّ علي أن أتولى رئاسة ديوان المعارف» إلى أن يقول: «وأخذت في درس حالة المدارس لإصلاحها على ما يلائم روح الأمة العربية، وبدأت بإنشاء دار للآثار وتجهيز دار الكتب الظاهرية بجهاز حديث...» واقترح أن ينقلب ديوان المعارف بأعضائه ورئيسه إلى مجمع علمي، وتكون علاقته مع رئيس الحكومة مباشرة. فقبل هذا الاقتراح، وشرع في تأسيس المجمع العلمي العربي في ٨ حزيران سنة ١٩١٩م... وفي آخر تشرين الثاني من السنة ذاتها، أي بعد عدة أشهر، صدر الأمر، بدعوى الصرف المالي، بصرف رئيس المجمع العلمي وأعضائه، إلا عضوين فقط للإشراف على داري الكتب والآثار. ويحدثنا عن هذه الفقرة فيقول: «ودمت منعزلاً في داري إلى أن عهدت إليّ وزارة المعارف في ٧ أيلول سنة ١٩٢٠م، أول دخول السلطة الإفرنسية إلى المدن الأربع. ولم يلبث طويلاً حتى استقال من المعارف، وبقي في رئاسة المجمع الذي كان يديره أثناء وزارة المعارف وبعدها..»[٤].

ومما له مغزاه أن أتوقف عند قضية من القضايا الكبرى، التي حاولت ومازالت تحاول قوى الاستعمار، بوجوهه المختلفة، النيل من اللغة العربية التي تشكل جوهر ثقافة أمتنا العربية والإسلامية وطابع حضارتها. فقد تولت جريدة (لاسيري La serie) الفرنسية في بيروت سنة ١٩٢٢م، أول الاحتلال الفرنسي، الدعوة إلى

(٣) انظر: خطط الشام، ج٦ ص ٣٤٤.

(٤) انظر: خطط الشام، ج٦ ص ٣٤٢.

الحرف اللاتيني. وكانت فرنسا قد جعلت من جزء الشام الشمالي خمس دول... وحاولت تفكيك اللغة ظاهرًا وباطنًا مما يبثّ من دعايات للعامية، وللحرف اللاتيني... فلما نشرت (لاسيري La serie) دعوتها إلى الحرف اللاتيني، وضربت له أمثلة من شعوب أعجمية، حاولت هذه المحاولة في أذربيجان، وانتصرت. عربت جريدة ألف باء الدمشقية مقالها في (١٩/ ١٢/ ١٩٢٢)، وطلبت إلى المجمع العلمي العربي بدمشق رأيه في الموضوع، فعهد المجمع بالجواب إلى أحد أعضائه الأستاذ إلياس القدسي، الذي درس الموضوع، وعرض لتفاصيله ثم انتهى إلى رفضه رفضًا باتًا[٥].

وبعد سنتين من نشر مقال جريدة (لاسيري La serie)، أرسل المستشرق الفنلندي، يوحنا اهتنين كرسكو، عضو المجمع العلمي العربي، مقالاً إلى مجلة المجمع العلمي العربي، عنوانه «نفي أوهام الأوروبيين في صعوبة تعلم العربية». وعرض كرسكو إلى مقابلة أجراها المستشرق الإنكليزي (مرجوليوث) بين اللغة العربية والإنكليزية فقال: «وليس لنا من وسيلة البتة، غير هذه الأوهام الأوروبية أو بالأحرى الإنكليزية إلى فهم كلام «مرجوليوث» في جامعة لندن في صيف سنة ١٩١١م. فإنه قرأ حينئذٍ بيانًا عن اللغة التي يجب أن تكون شائعة، لتفاهم شعوب العالم كله أجمع، واستخرج منه وجوب اتخاذ اللغة الإنكليزية واسطة لإدراك هذه الغاية، وأتى في جملة براهينه بمقابلة بين الإنكليزية والعربية، قال فيها: «إنه لو تساوى عدد المتكلمين باللغة العربية وعدد المتكلمين باللغة الإنكليزية، لوجب تفضيل الإنكليزية على العربية... إلخ[٦].

(٥) انظر: سعيد الأفغاني، من حاضر العربية، ص ١٧٨، مجلة المجمع العلمي العربي، ٣/ ١٧٩- ١٨٤.

(٦) انظر: مجلة المجمع العلمي العربي، (دمشق) تشرين الثاني عام ١٩٢٤ الموافق ربيع الثاني ١٣٤٣هـ المجلد الرابع ص ٤٨٣- ٤٩٢.

وإن هذه الحملة المسعورة على اللغة العربية، عشيَّة الحرب العالمية الأولى، تصنف في إطار السياسة الاستعمارية، بعد أن اجتاحت الجيوش البريطانية مصر، سنة ١٨٨٢م وألغتْ تدريس العلوم والطب باللغة العربية، واستبدلت بها اللغة الإنكليزية. وفي الوقت ذاته اندفعت إلى تشجيع اللغة العامية، والكتابة بها، وتصنيف قواعدها، نحوًا وصرفًا...

ويحدثنا الأستاذ سعيد الأفغاني، رحمه الله، عن مساعي المستشرق الإنكليزي (مرجوليوث) إياه، قبيل الحرب العالمية الثانية، فيقول: «كنتُ والأستاذ المرحوم كرد علي في حديقة داره. فإننا لنتذاكر بعض الأمور ، وإذا بالأستاذ يقف ويتجه نحو باب الحديقة، ليستقبل زائرًا طاعنًا في السن... فقدَّمه لي الأستاذ بقوله: «مرجوليوث» وعرَّفه بي... لم يطل مجلسه أكثر من نصف ساعة، عرفت فيه أن حكومته (وزارة المستعمرات الإنكليزية طبعًا)، أوفدته بمهمة من لندن، ليبيت ليلة في دمشق، وثانية في القدس، ليحط الثالثة في مطار طهران على موعد مع الشاه... رأيته يهجم على موضوعه دون تلبث. فيناقش الأستاذ كرد علي، ما الذي أبطأ بالبلاد العربية على الاقتداء بتركية في اتخاذ الحروف اللاتينية؟ ولمَ أضاعوا على أنفسهم هذا الرقي الباهر؟ فأجابه الأستاذ بلطف وصدرٍ واسع– على قلة صبره على سماع مثل هذه الرسائل– مشيرًا إلى خطأ هذه الفكرة، وأن وراءها أضرارًا على العرب لا تحصى، وأن الأتراك أنفسهم أضاعوا مركزهم في الشرق بتبديل حروفهم... فما رى مرجوليوث في كل ما سمع، وقال: إن أمله وطيد في أن يحذو الشاه حذو «أتاتورك»، وإن العرب لا يحملهم على تغيير كتاباتهم إلا حاكم قوي مثل أتاتورك، أو الشاه «بهلوي»، وأنه مسافر إلى

طهران، لدراسة أسباب تأخر الشاه عن المبادرة إلى فرض الأحرف اللاتينية»[٧].

فهذا موقف من المواقف الكبيرة، التي وقفها الأستاذ الرئيس كرد علي، رحمه الله، مدافعًا عن اللغة العربية لغة العروبة والإسلام، يدرأ عنها أخطار السياسات الاستعمارية وهي في أوج قوتها. وهو في ذلك كله ينزع عن سياسة المجمع العلمي العربي بدمشق، ويستلهم مواقف علماء العربية وسدنتها، في العديد من حصون العربية وقلاعها. رحم الله الأستاذ الرئيس كرد علي رحمة واسعة وجزاه الله خير الجزاء عن العربية وثقافة الأمة وحضارتها العربية والإسلامية.

(٧) سعيد الأفغاني، من حاضر اللغة العربية، الطبعة الثانية سنة ١٩٧١م/ ص ١٨٣–١٨٤. وقد حدثني بهذا الحديث الأستاذ الأفغاني –رحمه الله– عندما كان أستاذًا زائرًا بقسم اللغة العربية في الجامعة الأردنية.